العوامل التي جعلت من النجف بيئة شعرية
فامتازت بها من جميع البلدان العربية

الأستاذ جعفر الخليلي*

أحيل مرة أحد النجفيين لأداء الامتحان بدار المعلمين لتعيينه معلماً، فسأله العلامة المرحوم طه الراوي عن المستثنى بألا فلم يجب، فقال له الراوي :

- والله لو وجهت هذا السؤال لبقال من بقالي النجف لأجاب عليه؟!

ترى ما هو السر الذي جعل مثل هذا صالحاً لضرب المثل عن بيئة النجف بحيث يتوقع للبقال والعطار وغيرهما أن يكون له نصيب من الإدراك الأدبي وأن يكن ضئيلاً ما دام هذا البقال والعطار نجفياً؟

والحق لقد وجد بعض بقالي النجف وبعض العطارين وأصحاب الحرف فيما مضى على هذه الصورة وإن الكثيرين من سكان النجف يعرفون السيد الحسيب والشاعر الأديب السيد عبد الهادي الطعان وهو حي اليوم ويعمل في البقالة.

وأحسب أن الكثيرين من معاصرينا قد سمع باسم الحاج مجيد العطار إن لم يدركه وشهد براعته في قول الشعر وفي صياغة التاريخ بصورة خاصة، ولا يزال يعلق بذهني من تواريخه الشعرية البديعة تاريخ وضعه لموت شخص كان سيء السيرة، خبيث السريرة مات في سنة ١٣١١هجرية فقال العطار في تاريخه:

خـــذوه ثـــم غلـــوه فـــإني دعـــوتكم بتـــاريخي (خـــذوه)

أجل إنها بيئة النجف، البيئة التي أنجبت الفحول من الشعراء وأئمة الأدب، وتعاقب فيها النوابغ في سلسلة متصلة الحلقات نابغة بعد نابغة منذ القرن الرابع الهجري إن لم يكن قبل

---

* كاتب، شاعر، أديب، مؤلف، قاص، من رواد الصحافة العراقية والقصة والشعر (ت ١٤٠٥ هـ).
من بحوث مهرجان النجف الشعري الأول المقام من قبل جمعية الرابطة الأدبية في النجف، وقد طبعته سنة ١٩٧٠.

ذلك حتى الآن، فقد جاء في تحقيق للإمام الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء: إن هذه البلدة منذ أن أنشئت وظهر هذا المرقد الشريف فجر طلوع الدولة العباسية أو قبلها بقليل صارت أفئدة كثير من العارفين تهوي إليها وتختار السكن فيها على أنها بواد غير ذي زرع ولا ضرع[1].

ولقد أدركنا أسماء بعض الحلقات من سلسلة أولئك النبغاء من الشعراء المتأخرين كنماذج لمن كان قبلهم، أمثال السيد موسى الطالقاني والشيخ محسن الخضري والسيد محمد سعيد الحبوبي، والسيد إبراهيم الطبطبائي، والسيد جعفر الحلي وأدركنا منهم الشيخ جواد الشبيبي والسيد رضا الهندي، والشيخ عبد الحسين الحلي وغيرهم. ومن جيلنا عرفنا محمد رضا الشبيبي وعلي الشرقي، وأحمد الصافي ومحمد مهدي الجواهري، والحبل على الجرار كما يقولون.

ويكفي هذا دليلاً على ما أنجبت النجف من فطاحل الشعراء وأئمة الأدب، فقد ترك كل واحد من أمثال هؤلاء بالإضافة إلى ما تركه الذين عاشوا قبلهم من القرون البعيدة والقريبة من الثروة الشعرية ما لا يمكن أن تقدر بثمن.

أجل أنها البيئة، والبيئة هي المحيط الذي يتألف جغرافياً من الأرض والماء والسماء، ويتألف اجتماعياً من السكان ومما يتصفون به من الأخلاق والعادات والمعتقدات وطرق المعيشة.

البيئة الجغرافية

أما بيئة النجف الجغرافية فليس فيها ما يشحذ الهمم، وينعش النفوس، ويهيج البهجة، ويثير الشعور لنطق الألسن بالشعر، فهي بيئة صحراوية قاحلة لا ماء فيها ولا زرع وقد أحسن في وصفها أحمد الصافي حين قال:

صدق الذي سماك في وادي طوى ... يا دار: بل وادي طوى وعراء

جلست على الأنهار بلدان الورى ... فعلام أنت جلست في الصحراء؟

ولو تصدى متصد لجمع ما قيل من الشعر في عطش النجف وتاريخ الفعاليات التي قام بها المحسنون لإيصال الماء إلى النجف فنجحوا مرّات وأخفقوا مرات لحصل على ديوان ضخم من الشعر المقتصر على هذا الموضوع والدال على عدم ملائمة البيئة الجغرافية للعيش والسكن

---

(١) قداسة النجف الأشرف وعظمتها ـ مخطوطة احتفظ بصورة فوتوغرافية لها في مكتبتي ـ الخليلي.

فضلاً عن بعث روح الشعر في النفوس.

قيل أن موظفاً تركياً جاء من اسطنبول ليتولى قائممقامية قضاء النجف فمكث فيها سنتين، وحين عاد إلى اسطنبول ألف أحجية عن النجف بقصد التعكهة، وبدأ يسأل أصدقاءه وزملاءه. من يعرف منكم مدينة كثيراً ما ماتت من العطش إذا اشتد الحر صيفاً، وكثيراً ما ماتت من العطش إذا اشتد البرد شتاء وكثيراً ما ماتت عطشاً إذا ما أمطرت السماء وكان المطر غزيراً؟ فيحار المسؤولون في الجواب وتفغر أفواههم تعجباً، فيقول لهم القائممقام إنها النجف، إذ يهبط مستوى نهر الفرات في بحبوحة الصيف ويتعذر وصول الماء في المجرى الوحيد الذي تشرب منه المدينة، وإذا ما جاء الشتاء وهبت رياح الصحراء ولا سيما في شهر شباط انهالت الرمال من أجرف المجرى الضعيف ودفنته فينقطع الماء، وهكذا تفعل الأمطار ما تفعل الرياح وأكثر وتهيل الرمال وتسد المجرى، والنجف في كل وقت كانت تعاني الأمرين من شدة العطش.

ويقول لهم هذا القائممقام على ما يروي الرواة على سبيل التفكهة يقول: وفي الصيف حيث يتطلب الناس رؤوس الهضاب، وقمم الجبال، وأعالي العمارات استنشاقاً للهواء ونشداناً للنسيم العليل فإن سكان هذا البلد يختفون تحت الأرض وفي أعماق الأحجار ويقصد بذلك السراديب التي يلجأ إليها النجفيون في الصيف.

وفي الشتاء حيث ينشد الناس الدفء في الطبقات السفلى من العمارات يخرج أولئك من أحجارهم إلى الطبقات العليا فيمن هم هؤلاء.. وأين يسكنون؟

ولا أحسبني بحاجة إلى البرهان على استحالة بيئة جغرافية، كبيئة النجف المذكورة أن تكون عاملاً من عوامل بعث الأفكار الشعرية في النفوس وذلك لبداهة الأمر ووضوحه.

وأنا على خلاف مع من كان يرى في هذا الجفاف الطبيعي والحرمان وقساوة الشتاء والصيف خاصة وسيلة لتدفق الشعر في النفوس، وعلى خلاف مع الذين يغالون من الشعراء في وصف طبيعة النجف الجغرافية على خلاف حقيقتها.

أما بواعث الشعر في البادية فعلى ما فيها من سعة الرقعة والتفاوت في الجودة فإن لها عوامل أخرى لا تملك منها النجف شيئاً، وعلى هذا انحصرت بواعث الشعر في هذه المدينة وامتيازها بين جميع المدن العربية بالبيئة الاجتماعية وحدها.

البيئة الاجتماعية

ولكي نلم المامة موجزة شاملة ببيئة النجف الاجتماعية لانحصار عوامل بعث الشاعرية والميول الأدبية بها علينا أن نذكر أن الثقافة الإسلامية تختلف كل الاختلاف عن ثقافات الأديان الأخرى فهي ثقافة تدور على محور الدراسات الأدبية والإضطلاع بفلسفة اللغة العربية الواسعة المباني والمعاني التي لولاها لعجزنا عن معرفة القرآن وفهم كنهه، ومغزى أحكامه التشريعية والفلسفية والأدبية. ولذلك تحتم أن يكون الطريق إلى فهم الإسلام وشريعته وأهدافه ماراً بالأداب العربية وفنونها شعراً ونثراً، وعلى هذا كانت المدينة المنورة أول مدرسة بدأت تتدارس الثقافة الإسلامية على عهد رسول الله والخلفاء الراشدين، ثم انتقلت الدراسة بعد ذلك إلى البصرة والكوفة وقد توسعت آفاق الفنون العربية وعلومها منذ أول نزول الإمام علي (ع) في الكوفة نظراً لتفرده بين عظماء الأمة بزعامة الأدب، وزعامة التشريع، وبما أوتي من الملكات المتعددة كملكة الخطابة، وملكة الشعر، والإنشاء.

إضافة إلى تضلعه المدهش في الفقه والرواية، واستنباط الأحكام، وكان علم النحو، ونماذج البلاغة في الخطب، وصور الحكمة في بعض ما نسب له من الشعر أول حجر وضع للأدب العربي وقواعده العلمية، وراحت البصرة والكوفة تتلقفان من عرب البادية الكلمات وتعنيان بضبطها وتدوينها حتى اتسعت دائرة البحث في مدة ربما لم تتجاوز القرن الواحد اتساعاً، وقد روى المؤرخون عن عمرو بن العلاء التميمي المتوفى في منتصف القرن الثاني للهجرة إن مكتبته في الكوفة كانت تملا بيته إلى ما يقرب السقف، ومع ذلك فقد روى ابن خلكان عنه قوله:

«ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير»[1].

ودلالة على ما بلغ الاهتمام بالمدارسة في أدوارها الأولى روى ابن النديم في الفهرست ما شاهده بعينه في عرض كلامه عن خزانة كتب اطلعه عليها أحد جماعي الكتب فكان في جملة ما فيها قمطر كبير فيه نحو ٣٠٠ رطل جلود فلجان وصكان، وقرطاس مصري، وورق صيني، وورق تهامي، وجلود أدم، وورق خراساني، وبينها أربع أوراق قال:

«أحسبها من ورق الصين، وترجمتها: هذه فيها كلام في الفاعل والمفعول من أبي

---

(١) ابن خلكان ج١ ص ٦٨٣ ــ موسوعة العتبات المقدسة ج٢ ص ٢٠٨ قسم النجف.

الأسود الدؤلي رحمة الله عليه بخط يحيى بن يعمر، وتحت هذا الخط بخط عتيق: هذا خط علان النحوي وتحته: هذا خط النضر بن شميل، ثمَ لما مات هذا الرجل فقدنا القمطر[١] يقول ابن النديم:

وفي القرن الثاني للهجرة بدأت العمارة وابتدأ السكن في النجف تدريجاً فانتقلت المدرسة من الكوفة إليها وبقيت الكوفة تصب في بحر النجف على حد تعبير الشيخ علي الشرقي فكانت النجف بعد هذا ومنذ القرن الرابع الهجري على الأخص أول مدرسة إسلامية عربية ورثت العناية بالتراث العربي عن الكوفة وسعت إلى الاحتفاظ به والحرص على قواعده العربية ومدارستها، وقد جاء في حياة الشيخ الطوسي في منتصف القرن الخامس الهجري إن عدة تلاميذه الذين كانوا يحضرون بحثه وكلهم من المجتهدين نحو ٣٠٠ مجتهد[٢] وقد انتقل الطوسي من بغداد إلى النجف فانتقل بسببه النتاج الفكري من جميع المدن الإسلامية الشيعية إلى النجف.

وجاء في كتاب (الشعر السياسي العراقي): «وكانت مدينة النجف إلى جانبها ـ يريد جانب الحلة ـ على مسافة قليلة من ضفة الفرات الغربية موطن ومثابة الدارسين من مختلف الأقطار، وقد بدأت نهضتها العلمية في منتصف القرن الخامس للهجرة واستمرت في هذه السبيل طوال الفترة المظلمة.. الخ[٣].

وكانت المكتبات وما بدأت تتجمع فيها من الكتب النادرة من أعظم أحداث الثقافة وأهم ما تتميز به النجف منذ ذلك التاريخ.

يقول الدكتور صالح أحمد العلي في صدد الاهتمام بجمع الكتب العربية وحفظها من الضياع: «وبدأت العناية الشعبية والرسمية في حفظ التراث ومنعه من التسرب، وقامت محاولات متعددة لجمع المخطوطات وصيانتها في مكتبات عامة موحدة يتاح للراغبين فيها القراءة والبحث وكان أظهر تلك المحاولات هي التي قام بها نفر من الغيارى والعلماء في النجف والبصرة لهذا الغرض»[٤].

وبدأت الهجرة العلمية إلى النجف منذ أواسط القرن الخامس الهجري إن لم تكن قبل

---

(١) الفهرست ص ٦١ ــ موسوعة العتبات المقدسة ج٢ ص ٢٠٧ قسم النجف.

(٢) المقدمة من حياة الشيخ الطوسي للشيخ أغا بزرك.

(٣) الشعر السياسي العراقي لإبراهيم الوائلي ص٩٣.

(٤) المستدرك على الكشاف ــ عبد الله الجبوري ص١٢.

ذلك من شرق أفريقيا، ومن جبل عامل والبقاع بلبنان، ومن حلب وشمال سوريا، ومن البحرين والقطيف في الخليج العربي، ومن قفقاسية، وإيران، والتركستان الروسية والأفغان، والهند واندنوسيا، والصين، لينهل القادمون من العلوم العربية وليتفقهوا في الدين ولينالوا درجة العالمية ويعودوا إلى بلدانهم، ويقيم البعض بقصد المجاورة.

يقول الشيخ علي الشرقي: «وقد انتقل النتاج الفكري من كل هذه المدن إلى النجف، ولأجل التلمذة على منبر النجف هاجر ولا يزال يهاجر الجمع الغفير من سائر الأقطار الشعبية، هاجروا بالأدب، ومواعين الأدب. ـ ثم يقول ـ أجل لقد هاجروا بأذواقهم، وميولهم، وعقولهم وأسلوبهم الفكري، فأوجدوا في النجف حركة فكرية تمتاز عن الحركة الفكرية في أمهات المدن العراقية مثل البصرة والموصل وبغداد، وهذه الهجرة نفعت النجف وأنعشتها بأمور عديدة: أدبية واجتماعية وأوجدت لها مكانة عالمية مرموقة»[1] إلى آخر ما ذكره الشرقي.

ولقد تأثرت النجف فكرياً بانصهار هذه الثقافات في بوتقتها حتى ظهر أثر ذلك في اتجاهاتها الفكرية ونزعاتها العلمية، فحين أزمع العلماء فيها على تأسيس مدرسة عصرية في العقد الأول من هذا القرن وهي المدرسة العلوية التي أغلقت بسبب الحرب العظمى الأولى لم تحتج هذه المدرسة إلى جلب المعلمين من الخارج لتدريس العلوم العصرية واللغة الفرنسية والإنكليزية اللتين التزمت هذه المدرسة بتعليمهما بالإضافة إلى اللغة الفارسية والتركية وإنما كانت تستعين بالمهاجرين على ذلك وإنما علمنا أن الشاعر اللغوي الكبير الشيخ كاظم الدجيلي والدبلوماسي المعروف كان قد تعلم الإنكليزية أول ما تعلم في النجف وعلى فقيه هندي سهل علينا أن نتصور مدى انصهار هذه الثقافات المتنوعة وتفاعلها في هذه المدينة منذ ابتداء الهجرة حتى اليوم، واحسب أن الكثير منا قد عرف الشيخ محسن شرارة وهو أحد علمائنا المرموقين وعرف كيف أتقن هذا العالم الفلسفة الحديثة وكيف ألم باللغة الإنكليزية وهو لم يدرس في غير النجف.

وكل هذا صحيح لاغبار عليه ولكن مثل هذا لم يكن غير عامل واحد من عوامل تكوين البيئة الاجتماعية التي تصقل المواهب في النجف، وتحرك عناصر الشعر في الموهوبين فطرياً فتوسع فيهم آفاق الفكر، وتجعل صور الشعر ذات ألوان جذابة خلابة.

وإنما هناك عوامل أخرى ذات وجوه متعددة وقد تضافرت جميعاً لتكوين هذه البيئة

---

(١) الأحلام ص ٤٠ الطبعة الأولى مط شركة الطبع والنشر ببغداد.

التي حققت لمدرسة النجف مثل هذه الميزة بين جميع مدارس الشعر في العالم العربي بالأمس، وفي هذا اليوم.

المآتم الحسينية:

ومن أهم هذه العوامل كانت المآتم الحسينية التي ينشد فيها أرق الشعر وأجوده في عالم الرثاء فقد خلف الشعراء من المراثي في الحسين (عليه السلام) وفي آل البيت جميعاً ما أصبح مضرب المثل في التشبيه والتصوير والجناس وسائر فنون البديع.

ومن الشروط التي يجب أن تتوفر في خطباء المنابر الحسينية بعد حضور الذهن ووفرة المادة التاريخية والأدبية هي أن يكونوا من أحسن الناس صوتاً، ومن أعذبهم نغمة، فقد كان الشعر في مفهوم النجف موسيقى رتيبة وغناء عذباً وكان على الخطيب أن يرتل القصيدة ويلحنها تلحيناً يجتذب به المسامع ويجعل للشعر قيمة خاصة حتى في مسامع الآميين.

قص علي المرحوم الملا سلمان آل الملا علي من ألمع مدرسي مدرسة الغري وكان قد أعد نفسه ليكون خطيباً في أول نشأته وحفظ الشيء الكثير من الشعر والأخبار والأحاديث، ولكنه كان محروماً من عذوبة الصوت ـ لقد قص علي بأن أستاذه وهو السيد سعيد الفحام أرسله مرة ليقرأ لناس طلبوا منه أن يرشح لهم خطيباً لخمسة أيام فعني كثيراً من الليلة الأولى لما أورد من حديث ورواية، وشعر لفحول الشعراء على سبيل النموذج، قال وحين أردت الخروج من المجلس قال لي صاحب المأتم: لا تتعب نفسك في الليلة القادمة لأن لنا خطيباً هو الذي سيتولى القراءة.

قال الملا سلمان وعجز معي أستاذي إذ لم يصحبني في مجلس كقارئ مقدمة إلا وضاق بي أهل المجلس، وأخيراً قال لي أستاذي: ـ هل بوسعك أن تبدل صوتك؟

قلت ـ لا.

قال ـ إذن فأنت لا تصلح للخطابة يا سلمان، لأن قوام فن الخطابة في مأتم الحسين هو الشعر، والشعر غناء، والغناء يحتاج إلى صوت رخيم عذب، ولحن ساحر، وهناك يقول الملا سلمان تركت طريق الخطابة.

❖ ❖ ❖

وتكثر الاعتبارات والمناسبات التي تستدعي إقامة المآتم في النجف فهي لم تقتصر على

أيام عاشوراء بل تستوعب كل المحرم، وصفر، وشهر رمضان، وأيام الوفيات وأياماً أخر تفرضها النذور، وأياماً يستدعيها طلب التبرك كأن يدشن الشخص بيته الجديد، أو عند عودته من الحج أو السفر البعيد، أو يتخذ له من كل أسبوع يوماً لإقامة المأتم الحسيني مما يسمى (بالعادة)، وقوام كل هذا هو الشعر والشعر المنغم المرتل الذي يستهوي الأفئدة.

لقد زعم المتفكهون أن ذمياً أعلن إسلامه وأقام في النجف أياماً فواجه مثل هذه السلسلة من (التعازي) والمآتم فقال: هل لي أن أسأل سؤالاً؟

فقيل له.. وما المانع؟ فسل ما بدا لك.

قال.. ألم يكن في آل رسول الله أطفال يختنونهم؟ وشبان يزوجونهم؟ لنحتفل بذكراهم ونفرح بأفراحهم؟ فأن كل أيامكم تكاد تكون أحزاناً متصلة أفلا تملون وتسأمون؟

والحق أن هناك إلى جانب هذه المراثي آلاف القصائد التي لم تخص الرثاء وحده وإن كانت منظومة بقصد الرثاء ولكنها قد تبدأ بشيء من الحماس والمديح والوصف، والنسيب وحتى الغزل، بل وحتى الخمريات من الشعر وتنتهي بالرثاء في نوع من براعة حسن التخلص من علم البديع والذي يسمونه بـ (الكريز)، فما قضية المآتم إلا الذكرى التي تختم بها فصول الشعر والروايات والأخبار.

وليس ترتيل الشعر وتنغيمه وتلحينه وقفاً على خطباء المنابر وإنما هي صفة لم تفارق جميع من ينشد الشعر من النجفيين فهو غناؤهم في البيت بين أعضاء العائلة، وفي ساعة الوحدة والاختلاء بالنفس، وفي أثناء القيام بالعمل يغنونه لأنفسهم بأصوات عالية تنطلق من البيوت فيسمعها الجيران من أفواه الشيوخ، والكهول والشبان يقلدون بها خطباء المنابر، وبأصوات خافتة في شبه تمتمة حين يكون إلى جوارهم أحد وهم مختلون بأنفسهم.

كان السيد إبراهيم الطباطبائي صاحب ديوان الطباطبائي يقتعد ذات يوم ركنا من أحد اواوين الصحن، وكان بعض تلاميذه إلى جواره وقد بدأ يتمتم بصوت خافت ببعض الشعر، وكان السيد جعفر الحلي صاحب ديوان سحر بابل يجلس بالقرب منه فضاق بتمتمة السيد إبراهيم فقال بصوت مسموع وبالبديهة التي عرف بها معرضاً بالسيد إبراهيم قال:

ألا من يطرد البق ... فإن البق آذاني

لقد طنطن في أذني ... فطنت منه آذاني

وسمع السيد إبراهيم قول السيد جعفر فقام إليه بالعصا وكاد يدميه لو لم يحل الحائلون بينهما ويخلصوا السيد جعفر من بين يديه، وحصل هناك من الوسطاء الطيبين من أحسن الاعتذار وقيل أن السيد جعفر نفسه أنكر أن يكون قد قصد تتمة السيد إبراهيم بما قال، وإنما أراد من الحاضرين أن يسعفوه بسيكارة يطرد بدخانها البق حين قال:

ألا مـــــن يطـــــرد البـــــق فـــــإن البـــــق أذانـــــي

وسوي الأمر بين الأستاذ وتلميذه وجاءه السيد جعفر معتذراً وكلمه كما لو كان إسماعيل يكلم آباه إبراهيم قائلاً:

هـــا أنـــا ذا جئتـــك مـــستغفراً يـــا أبـــت أفعـــل بـــي مـــا تـــؤمر

وأدرك جيلنا من كبار خطباء المنابر الذين عرفوا بإنشاد الشعر مرتلاً ومنغماً والذين كانوا يتولون إنشاد القصائد نيابة عن شعرائها لعدم توفر شروط الغناء فيهم، لقد أدرك جيلنا منهم الشيخ كاظم السبتي. والشيخ محمد شريف، والشيخ حسن السبتي وأخيراً السيد خضر القزويني الذي بز جميع الخطباء في إنشاد الشعر وحلاوة ترتيله وتنغيمه.

وكان الناس يلجون مآتم الحسين أما طلباً للمثوبة أو أداء للواجب الذي يفرضه تبادل الزيارات بين الناس، أو تنفسياً عن همومهم، أو تلهية وملأ للفراغ الذي يشعرون به، فكان لا بد للشعر الذي تعج به المدينة صباحاً ومساء أن يفعل فعله في النفوس، وأن يبني له صرحاً لم تبنه مدينة من قبل.

ومدينة النجف كما يعلم ناسنا تقوم في بقعة صحراوية منقطعة تحف بها الأخطار من كل جهة قال عنها الإمام الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء: «وحيث أن هذه البلدة المقدسة حسب موقعها الجغرافي، وموضعها الطبيعي، واقعة في كبد الصحراء على حاشية الطفوف المطلة على الوهد الفسيح المتصل ببر الشام غرباً وكثبان نجد والحجاز جنوباً، ولم تكن حواجز بين العراق وتلك الأقطار فلا مسالح على الحدود ولا مخافر، ولا معاقل. فلذلك كانت النجف بل وكربلاء عرضه لغارات أعراب تلك البوادي»[1].

ومن أشهر تلك القبائل كانت عنزة وشمر، والرولة، فاقتضى لذلك أن تحمي النجف نفسها بسور يمنع غزوها والسطو عليها من هذه القبائل، فقام أول سور عليها على بعد خطوات

(١) قداسة النجف الأشرف ــ صورة فتوغرافية لمخطوطة بقلم الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء في مكتبتي.

من مرقد الإمام، واتخذت المقبرة خلف السور مباشرة ثم بدأ الأحياء بغزو الأموات كلما ضاقت المدينة بالنفوس فيزول السور وتزول معه المقابر ليقوم سور آخر على مسافة أبعد منه، ولا يعرف كم سوراً أقيم على النجف منذ تأسيسها عدا الأسوار الأربعة التي يذكرها المؤرخون، وكانت المدينة تضيق بالنفوس فلا يسعها أن تتجاوز السور خوفاً من السطو على بيوتها الخارجية وقد شهد الكثير منا بقية بعض علائم الخوف ورأى كيف كانت المدينة تبادر إلى إغلاق أبواب السور عند غروب الشمس أو بعيد الغروب بقليل، ولا بد أن نكون قد سمعنا بما كان يقع من السلب والقتل للذين يتخلفون في الطريق إلى وقت متأخر، بين أبي صخير والنجف وبين الكوفة والنجف، وليست حادثة سلب الشاعر مهدي الجواهري لتغيب عن ذهني والوقت كان لا يزال في أول الليل، والجواهري على بعد خمسمائة متر أو أقل من ذلك عن المدينة.

أقول: كل هذا قد سبب للنجف أن تحشر سكانها حشراً ليس من الغريب أن يشبه بكبس التمور في القوصرة، فقد كان البيت النجفي الصغير يستوعب من السكان في الأجيال الماضية ما لم يخطر على بال أحد، وقد تحشر عائلة لا تقل نفوسها عن بضعة أنفار في غرفة صغيرة واحدة أو غرفتين على الأكثر.

حدثني المرحوم الحاج مصطفى الصراف قال: كانت تربطني بأب الحاج صالح الجوهرجي الوجيه المعروف في النجف رابطة صداقة محكمة وقد شكا لي هذا الصديق مرة مما يعاني هو وأهل بيته من ضيق المسكن في دار أبيه.

وقال أن دارهم هذه كانت تضم أعمامه وإخوانه وأولاد عمه بحيث اختصت كل غرفة منها بعائلة منهم فكانت حصته من هذه الدار غرفة واحدة وقد خصصوها للنوم وجمعوا حوائجهم في مكان حوى كل حوائج سكان البيت، وقد ضاقت بهم هذه الغرفة اليوم لعدم إمكان استيعابها لنوم الأولاد حتى صار من الصعب أن يمد أحدهم رجليه كما يمدها كل نائم حرصاً على راحة الآخرين، وليس بإمكانهم الخروج من البيت وإيجار سكن مستقل لهم بسبب ضيق الميزانية.

يقول الحاج مصطفى الصراف: فقلت له: أحضر لي (مجيدياً) واحداً وأنا أحل لك المشكلة حلاً مرضياً وفي مدة لا تزيد على أسبوع، وحين عرفني جاداً جاءني بعد يومين بـ (المجيدي) المطلوب وهو فاغرفاه تعجباً بما يمكن أن أفعل بهذا المجيدي والمجيدي هذا عملة عثمانية تساوي ما يعادل مائتي فلس من عملة هذه الأيام.

وطلبت منه ـ يقول الحاج مصطفى أن يدخلني بيته ويريني غرفته، وهناك قمت بقياس طول الغرفة وعرضها بالأشبار وقلت له أبشر فقد حلت الأزمة ولكني لم أخبره كيف حلت الأزمة.

وقصدت حين ذاك أحد الذين يصنعون الأسرة من جريد النخل وطلبت منه أن يصنع لي سريراً متنقلاً وبعدد من القطع ينضم بعضها إلى بعضها عند اللزوم فيتألف منها سرير بحجم الغرفة المشبورة ووفق التصاميم التي وصفتها له، وعدت بالسرير بعد أيام ووقفت على إدخاله الغرفة وقلت لصديقي والد الحاج صالح الجوهرجي:

والآن لقد أصبح لديك غرفتان إحداهما تحت السرير والأخرى فوقه وبإمكانك أن تقسم العائلة إلى قسمين منذ الآن كما لو كان لك بيت ذو طابقين !!.

ثم ناولته عشرين قرشاً كانت قد فضلت من المجيدي وقلت له أقرأ معي:

﴿سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين﴾ فقرأ.

وكل هذا الضيق آل إلى أن تضيق الشوارع وإلى أن تسمى مساحة لا تزيد على خمسين أو ستين متراً (بالفضوه) وصغرت البيوت وتحاشكت الدور حتى لم يعد يفصل بيتاً عن بيت الاجدار لا يزيد سمكه على سمك الأجرة المربعة الخفيفة من آجر النجف القديم، وقد أدى هذا الحشك إلى أن تصبح النجف على كثرة نفوسها كأسرة واحدة تسكن بيتاً واحداً، فإذا صرخ الدلال في مكان سمع صوته على بعد بضعة شوارع إذا لم يبلغ الصوت نصف المحلة أو كلها.

وإذا ما نادى الشيخ طاهر حمد من فوق منارة الحرم أو الشيخ حسين المؤذن، وهما ممن اشتهر في أيامنا هذه بالمناجاة، والأذان أقول إذا ما نادى أحدهما في السحر من ليالي رمضان صائحاً: لا تشرب، سمعت صوته المدينة كلها وأمسكت عن شرب الماء والأكل ولم يكن الميكروفون معروفاً في تلك الأيام، لذلك ليس من المستغرب أن تصل نغمات الشعر من مآتم الحسين إلى كل شخص وهو في بيته ومستلق على فراشه لا سيما في ليالي الصيف.

وليس من المستغرب أن يغفو النجفي على نغمات الشعر التي تأتيه من كل صوب مما يطوح به الخطباء و (الروزه خونية) كما يسمونهم، تطويحاً رتيباً موسيقياً كما يغفو الأطفال على الترنيمة وهدهدة الأم.

وليس من المستغرب أن يستيقظ النجفي في الصباح، وفي الصباح المبكر على هذا الغناء

من الشعر الذي يأتيه من المجالس التي اعتادت أن تبكر بمأتم الحسين في صباح كل يوم، فلم لا تستيقظ في النفوس أذن ملكة الشعر إذا كانت الطبيعة قد خصتها بهذه الملكات بعد أن أصبحت المدينة كلها تعج بالشعر والغناء به، ولم لا تكون النجف بعد هذا البيئة المنفردة برعاية الشعر، وتحيه حتى لمن لا يفهم الشعر ما دامت دنيا النجف كلها شعراً.

عامل الدراسة:

ولم تنحصر عوامل البيئة الشعرية بالمآتم الحسينية وإنما هنالك عوامل أخرى لها شأنها الكبير في النشأة الشعرية ألا وهي الدراسة.

فالطفل أول ما يريد أن يتعلم القراءة والكتابة في النجف فإنه يتعلمها في القرآن الكريم مبتدئاً بالجزء الأخير من المصحف ومنتهياً بالجزء الأول، وهنا تبدأ أذناه بتسقط الكلمات الفصيحة كلمة بعد كلمة، وتألف الجمل البليغة جملة بعد جملة حتى إذا حان له أن يكتب الكلمة ويحاول جمعها تولى الشعر هذه المهمة وذلك بأن يبدأ المعلم بكتابة بيت من الشعر في صدر لوحة التنك ويدفع بها إلى التلميذ ليقرأ البيت ثم يقلد كتابة الأستاذ في اللوحة، ولا أحسب أن تعليم الكتابة قد جرى عن غير طريق الشعر في جميع القرون السالفة، وإذا ما أشتد ساعد التلميذ استكتبه الأستاذ قصائد ومقاطيع للشعراء لا يلبث أن يحفظها على الغيب ويغنيها في خلوته ويتلذذ بها.

والحق أنهم لم يكونوا جميعاً على هذه الوتيرة ولكن هذا كان ديدن الغالبية من الأساتذة والتلاميذ ولا سيما الفضلاء من الأستاذة، وكان التلاميذ وهم صغار يتعلمون المساجلة الشعرية بمحفوظاتهم وذلك بأن يأتي أحدهم ببيت من الشعر مختوم بالميم مثلاً لكي يأتي الآخر ببيت مبدوء بالميم وهكذا يجرون حسب مقتضى القوافي وإذا ما اتصلت هذه الدراسة الأولية بالدراسة الابتدائية وابتدأت بالمقدمات لدراسة العلوم العربية فجداول الشعر حينذاك تنساب من جميع الأطراف، فألفية بن مالك في النحو كلها شعر، وتمارين الإعراب إنما يأتون بها من الشعر المملوء بالطرائف الأدبية والنكت الفنية ليوسعوا بها ذهن الطالب، بل ليس هنالك شواهد وأمثلة لما يتعلمون دون أن يكون الشعر محوره الذي تدور عليه الأسئلة والأمثلة، فإذا ما أرادوا اكتشاف قابلية الطالب في فهم المعاني، وإدراك ما في الأدب العربي وقواعده من نكات نحوية وبيانية وحتى الفلسفية والمنطقية، بل وحتى الفقهية أو أرادوا تثقيفه تثقيفاً شاملاً جاؤوه بأبيات من الشعر وطلبوا منه غربلتها ونخلها واستنباط ما فيها من المغازي والمعاني والأهداف العلمية والأدبية كأنما ليس هنالك معيار ومقياس يقيسون به الملكات أو وسيلة

للثقافة الأدبية غير الشعر والشعر وحده.

وعلى سبيل المثل أذكر أن أستاذي قد سألني فيما سألني يوم كنت أقرأ النحو وبلغت فيه الفاعل وإعرابه أن أعرب له البيت التالي:

ما نالني من حبها لا والذي عزوجل

على أن أعين له الفاعل من قول الشاعر: (ما نالني من حبها) وقد سألني فماذا هو الذي ما نالك من حبها؟

وفي مثل هذا الموقف وأمثاله مما لا يحصى يتفتح ذهن الطالب حين يعلم أن الفاعل للفعل: (ما نالني) قد أخفوه بالتورية في آخر البيت، وصاغوا منه القافية للتمويه الفني، وما على المعرب إلا أن يعيد الفاعل من آخر البيت ويقرأه إلى جانب الفعل ليقول:

(ما نالني وجل من حبها لا والذي عز)

بدل أن يقول:

(ما نالني من حبها لا والذي عزوجل)

وبهذا وأمثاله يكون للشعر منزلة خاصة حين يكسب صفة المحور الذي تدور عليه كل البحوث.

حتى الفقه، لقد فتحوا له أبواباً وفصولاً من الشعر وبدأوا يتدارسونه كرجز شبيه برجز بن مالك في النحو ومن ذلك كانت أرجوزة بحر العلوم، بل وحتى الحكمة والفلسفة والإلهيات قد نظموها بالشعر وبدأوا يتدارسونها شعراً كمنظومة السبزواري.

ولم يقتصر نظم العلوم والفنون بالشعر على الماضين وإنما تناول المتأخرون والمعاصرون من النجفيين الكثير من العلوم والفنون والآداب والتاريخ بالشعر وقد صدرت أخيراً للسيد محمد البغدادي أرجوزة في الصوم والاعتكاف والخمس، حتى القرآن الكريم قد تناولوا تفسير جوانب منه بالشعر كقولهم:

(باؤوا) بمعنى انصرفوا أو رجعوا وهي لغير البشر ليست تسمع

(والصابئين) من هم قد خرجوا عن دينهم وفي سواه ولجوا

ومن أواخر ما قرأنا: أرجوزة في الأحوال الشخصية كالزواج والطلاق والمواريث وغير

ذلك نقل بها محمد الخليلي كتاب (عندما كنت قاضياً) بالشعر وقدمه بهذه الأبيات:

أيها المصلح الذي ... قد طلبت التداويا
قاضياً كنت مصلحاً ... أو أديباً محاميا
هاك فاسمع تجاربي ... عندما كنت قاضيا

وحتى آداب المائدة، وتناول الطعام ومقتضياته الشرعية، وما يستحب أن يجري في الأكل والشرب قد نظموها شعراً واشتهرت منها منظومة الأعسم بصورة خاصة، ولم يزل عالقاً بذهني من آداب المائدة الشعرية قول الراجز على الأكل:

دع السكوت فهو شيمة العجم ... وجود المضغ وصغر اللقم
وأبدأ بملح قبل بدء المائدة ... واختم به فكم به من فائدة

وليس تاريخ النجف وكربلاء والكاظمين وسامراء الذي نظمه العلامة الشيخ محمد السماوي بالبعيد عنا والذي بدأه بقوله:

أحمد من قد أنشأ السماء ... والأرض وامتازهما إنشاء
وأختص بعض الخلق دون بعض ... بفضله من السما والأرض
وبعد فالمذنب ذو المساوي ... محمد بن الطاهر السماوي

إلى آخر الأرجوزة:

ولقد تناول الشعر في النجف جميع نواحي الحياة ولم يقتصر على وجوه العلم والأدب والثقافة الدينية، حتى الشطرنج تناوله الشعر ووصفه ووصف لعبه وصفاً بارعاً ولم يكن ذلك بالغريب لو لم يكن القائم بوصف لعبة الشطرنج عالماً فقيهاً كالشيخ عبد الهادي شليلة.

ولقد بقيت في ذهني من أرجوزة الشطرنج أبيات لا أدري هل هي من منظومة الشيخ عبد الهادي أم من منظومة قديمة أخرى أختلط علي أمرها، وهي أبيات تصف حركة آلات الشطرنج منها قوله:

وبيدق أن ورد الكفاحا ... يسير قدماً قاتلاً جناحاً
والشاه لا يقرب عند الشاه ... لأنها من أعظم الدواهي

هذا مضاف إلى نظم العروض، والبديع، والموعظة على غرار (الصادح والباغم)

والمباريات الشعرية لما جاء به التراث العربي من نفائس الفنون والآداب والتي لا تزال النجف مطبوعة بطابعها، ومن هذا النحو كان تصدي مهدي الجواهري مرة لنظم كليلة ودمنة وقد أفتتح أرجوزته بما يلي:

قال مليك الهند دبشليم ... ليد بابا أيها الحكيم

اضرب لنا الأمثال في الأحباب ... تعمل فيهم حيلة الكذاب

إلى آخر هذا الفصل[1].

سواء كان نظم العلوم والآداب والفنون يجري بداعي تسهيل حفظ القواعد والإيجاز في السبك كما يقول الناظمون أو بداعي التباهي بالمقدرة أو اللياقة بحيث يستطيع المؤلف أن ينظم العلم كله أو الأدب كله بالشعر كما يقول البعض أو بداعي السبين في الغالب كما أقول أنا فإن ذلك وسيلة من وسائل تركيز الشعر واتساع آفاقه في النجف خاصة دون جميع المدن العلمية في الأقطار العربية ولا سيما بين الشعراء والأدباء والطلاب والمتأدبين.

فأينما تقع عيناك في النجف تجد حلقات الدرس مبثوثة هنا وهناك، وتجد الشعر مروياً كشواهد وأدلة للكثير مما يدرس من المواضيع، ففي المدارس الدينية حلقات للدرس تعقد في غرفها، وفي المساجد المعروفة حلقات متعددة تتحلق حول الأساتذة، وقد أحصى المرحوم الشيخ جعفر محبوبة مساجد النجف المعروفة في الثلاثينات فوجدها سبعة وسبعين مسجداً[2]، أما الصحن الشريف فكان يعج بحلقات الدرس، أينما اتجهت وجدت للدرس صرحاً كان الشعر من أركانه.

ولقد ورد النجف ألوف من الغرباء ولم يكونوا يعرفون من العربية شيئاً فصدروا عنها وبينهم من فحول الشعراء من تفخر بهم العربية أمثال أغا رضا الاصفهاني والسيد علي نقي اللكهنوي الهندي وغيرهما.

ولقد أطمعت بيئة النجف الشعرية حتى الذين لم يؤتوا ملكة الشعر بأن يكونوا شعراء أو يودوا بأن يكون شعراء ولست بناس الديوان الذي طبع في الهند طبعة مجدولة أنيقة لأحد رجال العلم الذين درسوا في النجف والذي أطلق صالح الجعفري عليه أسم (ديوان الله يحفظه) والذي علق العلامة الشاعر السيد رضا الهندي على أحد قصائده فشاع تعليقه في

---

(١) نصيب بغداد من كليلة ودمنة لجعفر الخليلي.

(٢) ماضي النجف وحاضرها ج١ ص ٦٨ الطبعة الأولى.

الأوساط الأدبية وتناقلته الألسن، أما الأصل فهو:

إذا زفت عروس نحو عريس تشوش فكرتي وتجن بالي
وإن جلست على الكرسي يوماً تهب الريح من طرف الشمال

فكان أن علق عليه السيد رضا الهندي.

لقد زعموا بأن به خيوطاً لقد صدقوا ولكن كالجبال

والخيوط اصطلاح لمن يصاب بلوثة أو مس فيقال أن فيه خيوطاً.

أقول حتى الذين لم يؤتوا ملكة الشعر قد جعلت منهم بيئة النجف العربية أناساً طامعين بأن يكونوا من قولة الشعر.

الدواعي العامة والدواعي الخاصة:

ومع هذا فلم يكن الاحتكاك بمختلف الثقافات بسبب الهجرة إلى النجف، ولا المرائي والمآتم الحسينية، ولا الدرس والمدارسة هو كل شيء في خلق هذه البيئة الشعرية وإنما هنالك عوامل هي الأخرى ذات شأن خطير في هياج القريحة عند أرباب الملكات وصقلها وإخراجها إلى حيز الوجود، ومن أهم تلك العوامل كانت الدواعي العامة التي تتمثل في الاحتفالات الكبيرة التي تقيمها النجف والدواعي الخاصة التي تتمثل في مجالس كثير من البيوت والأسر والتي هي بمثابة الأندية الاجتماعية والأدبية، وكونها وسيلة ترفيهية لانعدام وسائل الترفيه في هذا البلد القاحل.

الدواعي العامة:

أما الدواعي العامة فهي التي تعنى بما يجد في العالم الخارجي من الحوادث التي تخص الإسلام والمسلمين، والسياسة العامة والسياسيين فتعقد هناك المجالس العامة في الصحن الشريف غالباً أو في مسجد الهندي، أو مسجد الخضراء أو مسجد عمران ابن شاهين وهذا الأخير كان أقدم مسجد شيد في النجف إذ يرجع تاريخه إلى القرن الرابع الهجري، ويكون الشعر في هذه الاحتفالات هو المحور الذي تدور عليه الفكرة في كل مناسبة يستدعيها التجمع العام والاحتفال، وقد أدرك جيلنا من هذه المناسبات والدواعي العامة الشيء الكثير كمناسبة قيام الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ وكغزو إيطاليا لطرابلس سنة ١٩١٢ وكأعلان الحرب العظمى الأولى سنة ١٩١٤ وكقيام الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠، وكقضية فلسطين التي خصتها

النجف بالكثير من التجمعات والاحتفالات العامة منذ العشرينات بل منذ قيام وعد بلفور سنة ١٩١٧ حتى اليوم.

وكانت مثل هذه المناسبات بمثابة الأعياد للشعراء إذ يجدون فيها الفرصة التي يظهرون فيها قابلياتهم الشعرية.

وكانت القصيدة العامرة سبباً في اغداق الخلع النفيسة من الساعات والجبب، والأقمشة، المقصبة، والحريرية على الخطيب الذي يتولى إنشاد قصيدة الشاعر، والعادة هي أن يسأل الخطيب وهو يهم بالإنشاد من فوق المنبر، صارخين به من المجلس: لمن؟ أي لمن هذه القصيدة التي تنوي أن تنشدنا إياها فيسمي الخطيب شاعرها، وإذا لم يرد الشاعر أن يذكر اسمه يرد الخطيب فيقول لبعضهم أو يقول لبعض الأفاضل، وقد تكون القصيدة لنفس الخطيب فيرد على السائلين ويقول: للمنبر.

وشهدت النجف، فيما مضى ولم تزل تشهد في كل سنة الاحتفال بذكرى ميلاد الرسول (ص) وذكرى ميلاد الإمام علي (ع) وذكرى يوم الغدير، وما أكثر المناسبات التي كانت تستدعي الاحتفال الشعري العام في التاريخ القديم والحديث مثل تدشين طلاء القبة بالذهب، وتشييد المنارة، وبناء الصحن الشريف، وفتح الأبواب الجديدة للحرم، وقد تركت هذه الاحتفالات آثاراً رائعة من الشعر وتواريخ غاية في البراعة منقوشة على كثير من الأبواب، وتزخر بها الدواوين المخطوطة.

والمظنون أن أول احتفال عام جرى كان بمناسبة تدشين بناء الحرم الجديد والإيوان وكان ذلك بمحضر من عضد الدولة في القرن الرابع الهجري والذي أنشد فيه الحسين بن الحجاج قصيدته المشهورة:

يا صاحب القبة البيضا على النجف من زار قبرك واستشفى لديك شفى

وفي هذا الشعر الذي كان يتلى في المناسبات العامة والاحتفالات نلمس الشيء الكثير من روائع الفن والبديع ولا سيما التاريخ، ومن هذه الروائع - ونوردها على سبيل المثال - تاريخ منارة الحرم الذي يساوي تاريخها مجموع التكبيرة أربع مرات إذ يقول الشاعر:

وقام مؤذن التاريخ فيها يكرر أربعاً (الله أكبر)

وبتكريرك كلمة (الله أكبر) أربع مرات ستحصل على تاريخ المنارة وهو ١١٥٦ هجرية وهو تاريخ بناء المنارة.

وعلى ذكر الاحتفال وذكر التاريخ أذكر أن احتفالاً فخماً قام في الصحن الشريف بمناسبة فتح السلطان عبد العزيز الباب السلطاني، فأنشدت للعالم الشيخ عباس الشيخ حسن آل كاشف الغطاء فيما أنشد قصيدة جاء في تاريخ الباب قوله:

جلت علت باب سلطان السلاطين فقف بها خاضعاً واسمع مؤرخها:

فقام الشيخ محمد آل كاشف الغطاء وهو ابن عم الشيخ عباس وصاح في ذلك المجلس الغاص بالمحتفلين بأن هذا التاريخ ينقصه ثمانمائة ليكون تاريخاً صحيحاً، وعلا هنا الضجيج والوشوشة، فمنهم من فهم المقصود وهو أن الباب مذكر ولا يجوز تأنيثه، ومعنى ذلك يجب حذف التائين من كلمة (جلت) (وعلت) ليقال جل الباب وعلا وبذلك سينقص التاريخ ثمانمائة عدد عند حذف التائين ومنهم من لم يفهم، ومع ذلك فقد نقشت الأبيات والتاريخ على الباب المذكور.

ولم يكن اعتراض (الشيخ محمد) على الشعر والتاريخ غير مألوف بل أن السكوت كان غير مألوف لمن كان يرى ما يؤخذ على الشاعر ويسكت، وقد علمت النجف الشعراء بأن يغالوا في استحسان الشعر الجيد ويستعيدوه مرات ومرات، وعلمتهم أن يطلبوا من الخطيب أن يبدل القافية بقافية. والكلمة بكلمة أخرى وفق ما يقترحون إذا وجدوا ذلك أصح وأصوب، والمجلس وحضاره من أهل الأدب سيكونون هم الحكم في مثل تلك الاقتراحات.

ومن الأحتفالات الشعرية العامة إقامة الفواتح للكبار من مشاهير العلماء والشخصيات البارزة فيتبارى الشعراء في رثائهم، وقد لا يعرف هؤلاء الشعراء الفقيه ولكنهم يجدون في مثل هذه المناسبة فرصة لإظهار مواهبهم، وميداناً لعرض شاعريتهم، وهكذا يكون شأنهم في الأعراس، ولا سيما إذا كان العرس يخص أسرة ذات شأن في البلد.

وقد تركت الدواعي العامة من الشعر السياسي والشعر الاجتماعي والشعر الوطني، وشعر الإيمان والعقيدة ما تغنينا الدواوين الفخمة عن إتيان الأمثلة والشواهد لها وهي الدواوين التي تم طبعها في هذا القرن كديوان الطالقاني وديوان الحبوبي وديوان الطباطبائي، وديوان السيد جعفر الحلي وأخيراً الشبيبي والشرقي، والجواهري، والصافي واليعقوبي ومحمود الحبوبي وغيرهم.

أما الدواوين الخطية التي لم يتم طبعها، والشعر الذي ذكر في بعض المجاميع ولا سيما في (الحصون المنيعة) فهو يؤلف العشرات من الدواوين التي تحوي خيار الشعر النجفي الذي يموج الكثير منه بالأفكار الحرة الجريئة ويتدفق بالبلاغة، ويعبر عن أحدث الآراء والأفكار في عصوره بسبب الاحتكاك الحاصل من جراء الهجرة إلى النجف، وإذا علمنا أن الشبيبي والشرقي كانا من أوائل شعراء العرب، أن لم يكونا أول من تأثر بالفاجعة الإنسانية فتناولا غرق الباخرة تيتانيك سنة ١٩١٢ بروائع الأشعار من الرثاء أدركنا مدى اتساع آفاق الشعر في النجف وتفاعل الأفكار العامة فيه.

والشعر المسجل والمحفور على صخور القبور وحده ليؤلف عدة دواوين فيكف بشعر الحوادث العامة وما كان يجد في العالم الإسلامي والعربي، وقد صدر لجمعية (الرابطة) وحدها ديوان فخم من الفلسطينيات وهو ما أنشده أعضاء الرابطة وحدهم في الاحتفالات التي أقيمت لأجل فلسطين في دار الرابطة فكيف لو جمع كل ما قالته النجف في فلسطين؟

الدواعي الخاصة أو المجالس النجفية:

والكثير من النجفيين يقضون أوقات فراغهم من عصر كل يوم ومسائه في زيارة لبيوت الأسر التي تقتعد بيوتها للناس كما اعتاد أن يقتعد سراة العرب مضاربهم، وهذا ما يسمونه في النجف بالمجلس، ولأغلب هذه المجالس التي يرتادها الزائرون والأصدقاء وجهان، وجه عام يتناول فيه رواد المجلس الحديث عن الشؤون العامة والشؤون الخاصة، وما يجد في عالم السياسة والاجتماع والشعر والأدب حسب طبيعة صاحب المجلس وحضاره، ووجه خاص يقتصر على طبقة من الأدباء والشعراء الذين تجمع بينهم جامعة الشعر والأدب ولا يسمحون لغيرهم الاختلاط بهم وذلك حين يتفرغ المجلس لهم وحدهم، على كلا الوجهين فإن رواد هذه المجالس يقصدونها للتنفيس عن أنفسهم، وهي مجالس متنوعة، ولكل مجلس طابعه، ولونه، ورواده، وكان من أشهر مجالس العصور الأخيرة مجلس السيد سعيد الحبوبي، ومجلس السيد حسين القزويني، ومجلس السيد علي العلاق، ومجلس آل كاشف الغطاء وآل بحر العلوم لا سيما مجلس السيد علي بحر العلوم، وآل الشيخ راضي، وآل الجزائري وآل الصافي وآل فرج الله وآل المظفر، ومجلس الشيخ قاسم محي الدين وغيرهم من النماذج

الرائعة للعصور السابقة والتي خلفت ثروة لا يستهان بها من بدائع الشعر في مختلف فنونه، فمن هذه المجالس العامة والخاصة انبعثت مجاميع من الدرر، وروائع من الشعر الذي جاءت به المساجلات، والمعارضات والمباريات، والمفاكهة، والأخوانيات.

فهذا السيد جعفر الحلي يدخل مجلساً من هذه المجالس الخاصة فيجد طائفة من أصحابه متحلقين حول (سماور) للشاي من التنك، وقد تغامز القوم بينهم وتبانوا على أن يتجاهلوه على سبيل الدعابة، وبدأ صاحب البيت يسقي الرفاق ويتغافل السيد جعفر، والسيد جعفر شاعر سريع البديهة، وقد أحسَّ بما صمم عليه القوم فتناول (زبانة) من الأرض، وهي عقب السيكارة من الورق، وكتب عليها بيتين من الشعر وخرج غاضباً، وتناول القوم الزبانة وإذا بها قوله:

سماور جاء يحكي ثدي مرضعة ... لكن أهل اللحى في دره اشتركوا

سماور بات يحكي عقل صاحبه ... كلاهما إن تفتش عنهما تنك

وهذا شخص من أهل الأدب واليسار يعود من السفر وينثر في مجلسه الخاص وبين جمع من الأدباء عدداً من الخواتيم التي جاء بها معه ويقول لمن حضر من الشعراء في هذا المجلس الخاص أن ليس من حق أحد أن ينتقي خاتماً ويتناوله ما لم يدفع ثمنه من الشعر المرتجل. وكان من حضار هذا المجلس السيد جعفر الحلي، والشيخ عبد الحسين الحياوي، والسيد محمد حسين الكيشوان، والشيخ عبد الحسين الحلي وغيرهم، فنظم كل واحد بيتاً أو بيتين وانتقى من المجموعة خاتماً له، ومن المؤسف أن لا يكون هناك مصدر مطبوع أو مخطوط لنرجع إليه وكل ما بقى هو ما احتفظت به الصدور مما لم يتسن لجمعه أحد من مؤرخي الأدب في هذا البلد لذلك غاب عن ذهني معظم الشواهد في هذا المقام وفي غيره، ولم أذكر منه إلا قول السيد جعفر الحلي الذي أنشده على سبيل البديهة وفي بحر دقائق من التأمل في هذا الأديب العائد من السفر

أما وربك ما طابت مجالسنا ... من يوم فارقتنا يا كعبة الشرف

قد كنت مذ كنت فيما بين أظهرنا ... كالبحر ما أنقصته كف مغترف

حسنت كف العلى إذ كنت خاتمها ... فأنت زينتها يا درة النجف

كذلك لم أذكر غير قول الشيخ عبد الحسين الحلي الذي قال:

ألقى الخواتيم لنا فانثرت ... حتى تنافسنا عليها معه

فــلا تــسل عنــا فكــل واحــد أدخــل في (خاتمــه) إصــبعه

والنكتة هنا من الدعابة واضحة فلا حاجة للإشارة إليها وهي نكتة ما كنا لنوردها لو لم نجد فيها لوناً آخر من ألوان الدعابة.

وعن طريق هذه المجالس حدثت المعارك الشعرية وكانت منها معركة الخميس التي أسهمت فيها طائفة من مشاهير العلم والأدب أمثال المرجع الكبير الشيخ جعفر كاشف الغطاء، والسيد محمد زيني، والشيخ محمد ابن الشيخ يوسف آل محي الدين وغيرهم فتم حسم هذه المعركة على يد السيد الكبير السيد بحر العلوم[1].

كذلك عن طريق هذه المجالس حدثت المعركة الشعرية التي دامت طويلاً بين شعراء الشيوخ وشعراء الشباب التي أدركناها ومن عناصرها الذين شهدوها الشاعر صالح الجعفري والدكتور عبد الرزاق محي الدين.

وفي هذه المجالس قد يجلب كل رائد من الرواد الخصوصيين غداءه من بيته ويجمعونه في مائدة واحدة بناء على اقتراح آني مفاجئ ويشرعون بالأكل وهو ما يسمونه (بالصحنية)، وكثيراً ما يؤدمون غداءهم هذا بالشعر، وقلما ضمت دعوة خصوصية في مجلس من المجالس جمعاً من الأدباء ولم تؤدم هذه الدعوة بالشعر.

دعا مرة المرجع الديني الشيخ أحمد كاشف الغطاء جمعاً من الأدباء لأكلة (هريسة) وسمك في مجلسه الخاص وكان الشيخ جواد الشبيبي ضمن المدعوين فتشابكت الأيدي على الهريسة والسمك ولم يحصل الشبيبي على شيء منها فعرض عليه الشيخ أحمد أن يقترح أكلة بعدها له ولمن يشاء من أصحابه في أي يوم يعينه ككفارة عما حدث في يوم الهريسة فكتب الشبيبي له هذه الأبيات:

يا من لذاتك بيت من علا سمكا صير غدائي غداة الأربعا سمكا

وخصني فيه فرداً لا يشاركني سواك فالنفس تأبى الشرك والشركا

أما اعتبرت بهم يوم الهريسة من ألقوا أناملهم من فوقها شبكا

قالوا لنا سرر (البني) نقسمها ما بيننا والبقايا والجلود لكا

وكثيراً ما تخطط (المقالب) في المجالس الخاصة فتدخل هذه المخططات حلبات الشعر،

---

(١) ماضي النجف وحاضرها ج١ ص ٢٨٦.

وقد جاءتنا من ذلك أخبار رائعة في قصائد عامرة شارك فيها جمهور من فحول الشعراء كان من بعضها قصة اختطاف الخروف من بيت الشيخ إسماعيل الخليلي وكان هذا الخروف يخص خليل الخليلي ابن الشيخ إسماعيل فذبحوه، وكانت عصابة الاختطاف مؤلفة من السيد جعفر الحلي والشيخ أغا رضا الاصفهاني، والشيخ جواد الشبيبي والشيخ هادي الشيخ عباس، والسيد باقر الهندي والسيد رضا الهندي وقد أسهم هؤلاء في نظم قصيدة بهذا الموضوع كان لكل واحد منهم فيها بيت أو بيتان نورد بعضها على سبيل المثل.

بالفصل الخريف أي خروف ... فيه أسى مجندلاً مقتولاً

هو فصل أهل العراق نفاقاً ... ذبحوا فيه كبش إسماعيلا

يا سليل الخليل صبراً وإن ... كان عزيزاً فقد (الخليل) الخليلا

إلى آخر القصيدة.

والتسلية بتقفية الشعر في أوقات الفراغ ولا سيما في هذه المجالس الخاصة، والعادة هي أن ينبري من عرف برخامة الصوت، وإجادة الإنشاد فيختار من دواوين الشعراء أصعب القصائد تقفية وعلى من كان مسبوقاً بهذه القصيدة أن ينسحب من تقفيتها، وفي هذا اللون من التسلية مرتبة مهمة من مراتب تنمية القابليات عند الشعراء، وقد رأيت مهدي الجواهري الشاعر في شبابه يراهن على أن يقفي من كل عشرة أبيات ثمانية، ولكنه كثيراً ما كان يقفي العشرة بكاملها دون أن يخطئ القافية.

وقد ورثت مجالس النجف الخاصة هذا اللون من التسلية من الأجيال القديمة، ولا يعرف لها تاريخ لبعد معرفة النجف بها.

❖ ❖ ❖

والمناسبات التي تهيج قرائح الشعراء، وتشيع السرور في نفوسهم في هذه المجالس الخاصة التي يعقدونها للترفيه كثيرة ومتنوعة، وإذا عز وجود المناسبة التي تستدعي المساجلة، والمباراة الشعرية، والسلوان، فإن الشعراء هم أنفسهم يخلقونها خلقاً حتى صار الشعر طبيعة ملازمة لحياة النجف المجملة، فقد دخل الشعر الرسائل، وصيغت به المواعظ، وضربت به الأمثال، وغدا المعبر المفضل عن الشعور في سوح الوطنية، وميادين السياسة، والمعرب عن الأحاسيس في تدبيج التهاني والتعازي، كما صار الوسيلة الوحيدة للتنفيس عن الكروب والهموم، وقلما تجد اليوم بيتاً من البيوت

المعروفة ولا سيما بيوت أهل العلم والأدب . وما أكثرها في النجف . لم تؤرخ مواليدهم أو وفياتهم بالشعر، وصار الشعر بسهولته عند قائليه في النجف بمثابة سيكارة متى أراد المدخن تدخينها فما عليه إلا أن يقدح لهم قدحة من زناده، أو يولع لها عود ثقاب، ويبدأ التدخين.

لقد زار السيد سعيد كمال الدين مرة أمين خالص فلم يجده فسحب بطاقته من جيبه فوراً وكتب عليها ما يلي:

لقد زرتكم والشوق ملء جوانحي ... لأطفئ شوقاً في الفؤاد دفينا

أردت (أمينا) كي أبث لواعجي ... لديه ولكن ما وجدت (أمينا)

وشقت بلدية النجف ذات مرة طريقاً حول البلد فاقتضى ذلك أن يستقطع قسم من بعض البيوت ليضم إلى الطريق العام، أما الفضلات المتبقية أمام بعض البيوت فقد استملكتها (البلدية)، وكانت أمام بيت السيد مير علي أبي طبيخ فضلة شق عليه أن تتخذ البلدية منها حوانيت تلتصق ببيته فكلفني أن أحمل البلدية على بيع هذه الفضلة له وحين جئته بخبر الموافقة، قال وهو يسقيني القهوة ويضحك، قال لقد حضرني بيتان بهذه المناسبة، قلت وما هما؟ قال:

شوارع وسعوها كي يكونا ... على رفه بها المستطرقونا

فكم صلموا بها أذنا وأنا ... بحمد الله زادونا قرونا

وغير هذا الكثير مما يقع من الشعر المرتجل أو شبه المرتجل في كثير من المناسبات الآنية المفاجئة.

ومن هذه المجالس الخاصة انبعثت طائفة من البدائع الشعرية التي تحتاج إلى أن يتصدى لجمعها ليزين بها جيد الأدب بالمبتكر الرائع من الشعر فقد يجري في هذه المجالس حديث بناء مسجد جديد، أو تشيد مدرسة حديثة، أو وفاة شخصية لامعة أو ولادة طفل لبيت جليل، أو لأب شاعر أو نقش خاتم، أو كتابة رسالة ذات شان، أو يطلب من أحد الشعراء راساً أن يخلد حدثاً معيناً بالشعر فيفعل ويشيع أمر المبتكر من هذا الشعر في البلد ويخلد على قدر ما فيه من روعة وابتكار.

فهذا السيد رضا الهندي يؤرخ وفاة السيد نور الياسري الذي أبلى في الثورة العراقية الكبرى بلاء أحسنا فيحفر هذا التاريخ على صخرة قبره ويشيع في الأوساط لبراعة ما فيه من

جناس وتورية في اسم السيد (نور) إذ يقول:

هـذا ضـريح فيـه نـور الهـدى وهـو بلطـف الله مغمـور

وكيـف يخـشى ظلمـات الثـرى أرخ: (ضـريح ملـؤه نـور)

وهذا السيد جعفر الحلي يطلب منه، صديقه سعيد ناجي أن يجد له كلمة بليغة ومناسبة من الشعر تصلح أن يحفر بها له ختماً فيضمن السيد جعفر الحلي تلك الكلمة بشطر من الشعر وفي تورية غاية في البراعة والروعة ويجيء الختم على هذه الصورة:

«بحب بني النبي سعيد ناجي»

وينشر خبر هذه البراعة في المجالس الخاصة وتتناقله الأوساط الأدبية.

وقد شاع يومذاك في المجالس بأن (سعيد عجينة) وهو من وجوه النجف وإجلائها وكانت بينه وبين (سعيد ناجي) منافسة في الوهاجة جاء إلى الشيخ جابر الكرماني وكان للكرماني هذا شهرة في نقش الأختام تضاهي شهرة ابن مقلة في الكتابة في العصور القديمة، وشهرة الشيخ نسيب مكارم في عصرنا الحاضر، لقد شاع بأن سعيد عجينة قد جاء إلى الشيخ جابر يطلب منه أن يحضر له ختماً على غرار ختم سعيد ناجي، وينقش فيه (بحب بني النبي سعيد عجينة) ولربما كانت هذه الشائعة من النكت التي نسجها الأدباء وطالما نسجوا نظائرها. والمهم إنها قد شاعت حينذاك في البلد.

وعلى ذكر نقش الأختام والشائعات نذكر أن (الحاج وناس) وهو من تجار الحبوب في النجف وكان أمياً جاء إلى الشيخ جواد الشبيبي يطلب منه أن يختار له آية قرآنية مناسبة أو بيت شعر يتضمن اسم (وناس) لينقش خاتمه به، كما يفعل الوجهاء والأكابر في تلك الأيام، وعبثاً حاول الشبيبي إقناع (الحاج وناس) بأن اسم (وناس) غير صالح لتضمين آية أو شعر ولما عجز كتب له: (من الجنة وناس)، ولكن الشيخ جابر قال للحاج وناس: صحيح أن في هذه الكلمة شيئاً من تفاعيل الشعر من صنف البند، ولكن الشبيبي أراد أن يمزح معك وصرفه عن نقش اسمه على الخاتم.

أن الحرم المقدس محاط من الداخل بآيات من الشعر البليغ، وإن الضريح محزم من أعلى جبهته بالشعر المصوغ بالذهب والفضة، وعلى جميع أبواب الحرم من الداخل والخارج، وعلى جميع أبواب الصحن قد نقشت قصائد ومقاطع يرجع

بعضها إلى عهود تاريخية بعيدة، وفي غرف الصحن وفوق مدافن العلماء والأكابر قصائد محفورة على المرمر، وعلى جبهات أغلب المساجد مقاطيع من الشعر تخلد لبانيها اسمه وتؤرخ سنة تدشينها، فمثلاً جاء في مسجد آل كاشف الغطاء قول العلامة الشيخ جعفر نقدي:

أعبد الله بأعلى مسجد ... الثريا أصبحت دون ثراه
شاده جعفر من غرته ... (كشفت) نوراً عن الشرع (غطاه)
وابنه رب المعالي (أحمد) ... بذل الجهد لتجديد علاه
قلت لما كملت أركانه ... وغدا يسطع في الكون سناه
أرخوه مسجد جده ... أحمدتم على التقوى بناه

وبالقاشاني طبعت أبيات في تاريخ مسجد الجواهري انتهت بالقول:

أسسته على تقى فأرخوا ... بنيانه على تقى أسسته

وغيرها الكثير مما نقش بالقاشاني أو بالحجر شعراً رائعاً وتاريخاً مثل ما كتب على باب مسجد الهندي ومثل تاريخه القائل:

مؤرخاً كبر وهلل وكن ... مصلياً وأركع مع الراكعين

وفي مقابر النجف العامة والخاصة خارج الصحن الشريف ما يؤلف دواوين كاملة من الشعر الرائق، حتى البيوت لقد حظي الكثير منها بالشعر الفاخر في تاريخ بنائها، والكثير من هذا الشعر يأتي سلساً رائقاً بعيداً عن التعقيد بالرغم من طبيعة التاريخ المعقدة، وإن تاريخ بناء بيت السيد محي الدين القزويني الذي كلف بوضعه الشيخ علي بازي فقال في تاريخه: (أرخت هذا بيت محي الدين) أحد الأدلة على هذه السلاسة.

ولا أحسب أن هناك مدرسة دينية وإن عددها يتجاوز العشرات في النجف دون أن يكون لها تاريخ شعري منقوش بالكاشاني أو محفور بالمرمر.

وكل ما مر من العوامل والأمثلة التي ضربت للجيل الماضي أو الجيل الحاضر إنما هي امتداد للأجيال الماضية التي دلت عليها آثارها التاريخية، فما نشهده اليوم في هذه البيئة الشعرية وعواملها هي نفسها التي كان يشهدها آباؤنا وأجدادنا قبل ألف

سنة في هذه المدينة المقدسة والفرق أن الأجيال الأخيرة قد حظيت بوسائل النشر كالجرائد والمجلات والمطبوعات، فقامت بتعريف النجف للعالم الخارجي، في حين ظل المنتوج الشعري من الأجيال الماضية تحت أنظار المؤرخين والباحثين مقتصراً عليهم وحدهم يظهرون لنا منه بين آونة وأخرى ما يؤيد هذه المنزلة الممتازة للبيئة الشعرية في كل عصر وفي كل جيل ومن بينها ما لا يزال مكنوزاً في صدور الشيوخ والمسنين الذي لم يحصل لليوم أن يتصدى لنقله عنهم.

وأينما اتجهت في النجف قبل بضعة قرون أو أكثر أو اتجهت اليوم كان الشعر ملء عينيك، وكان ملء سمعك، فليس من المستغرب إذن أن يتوقع العلامة طه الراوي أن يكون حتى لبقال النجف شيء من الإدراك الأدبي.